

الجهود العربية النقدية للنظرية التفكيكية

"صالح زياد" في كتابه "آفاق النظرية الأدبية" -أمودجا-

The Arab Critical Efforts Regarding Deconstructionist Theory: Saleh Ziyad's Book Āfāq al-Nadariyyah al-Adabiyyah "Prospects of Literary Theory" as a Model



ط.د. خير الدين مداني*

جامعة باجي مختار - عنابة ص ب 12 عنابة 23000 الجزائر

khairreddine.madani@univ-annaba.dz

أ.د. أحسن مزدور

جامعة باجي مختار - عنابة ص ب 12 عنابة 23000 الجزائر

Mezdourahsene@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2026/04/23 تاريخ القبول 2026/05/28 تاريخ النشر 2026/06/08



ملخص:

يهدف البحث إلى إبراز الجهود العربية النقدية للنظرية الأدبية المعاصرة، والتي لطالما اكتفى فيها النقاد بالنقل الآلي للنظرية أو التطبيق المباشر لها دون نظر متبصر بمساءلتها أو بمراجعة سياقاتها المعرفية. لذا حاولنا التنويه بجهود الناقد "صالح زياد" في مواجهته النقدية لأشدّ النظريات المعاصرة إثارة للجدل، وهي النظرية التفكيكية من خلال كتابه "آفاق النظرية الأدبية".

من خلال منهج التحليل النقدي، وبعد تقديم الإطار المفاهيمي للتفكيكية، ثمّ تتبّع مناقشة صالح زياد لها من حيث خلفياتها الفلسفية ومقولاتها وأطروحاتها، توصلنا إلى أنّ

* المؤلف المراسل

النَّاقِد نَجَحَ إلى حَدٍّ ما في مواجهة هاتِهِ النَّظَرِيَّة. كما كَشَفَ البَحْثُ عَن وعي عميق ورؤْيَية دقيقة للنَّاقِد في تحليله لها.

الكلمات المفتاحية: نقد؛ نقد عربي؛ نظرية أدبية؛ تفكيكية؛ صالح زياد.

Abstract:

This research aims to highlight the Arab critical efforts in the field of contemporary literary theory. In this domain, Arab critics have long been content with the mechanical transfer of theories or their direct application, without any insightful examination of them or a critical review of their epistemological contexts. Therefore, we sought to draw attention to the critical efforts of the critic Saleh Ziyad in his confrontation with one of the most controversial contemporary theories, deconstructionist theory through his book *Āfāq al-Nadariyyah al-Adabiyyah*.

Using the method of critical analysis, and after presenting the conceptual framework of deconstruction, followed by tracing Saleh Ziyad's discussion of it in terms of its philosophical background, key concepts, and propositions, the study reached the conclusion that the critic succeeded, to a considerable extent, in confronting this theory. The research also revealed the critic's deep awareness and precise vision in his analysis of it.

key words: Criticism, Arabic criticism, literary theory, deconstruction, Saleh Ziyad

مقدّمة:

لطالما اعتادت الممارسات النقدية العربية - نظرا وإجراء - الدوران في فلك الآخر دون إدراك أو وعي بأهمية المراجعة والمساءلة، والتحيين للمقولات والأطروحات التي تكتنف تلك النظريات الواردة إلينا تباعا. ففي حال الافتقار إلى نظرية أدبية ونقدية عربية، يظل الإسهام النقدي أمرا مهما، وذلك لتجاوز الانبعاث والتقليد، خاصة بعد الهزّات العنيفة التي أصابت المركزية الغربية نتيجة ما أحدثته النظرية التفكيكية من تأثير. بغض النظر عن المضامين الفكرية التي تنطوي عليها النظرية التفكيكية، ومدى صحة أطروحاتها، إلا أنّ سقف الحرية الذي منحتهُ وسمحت به لا حدود له. لذا فحرّي

بالممارسة النقدية العربية أن تنفذ من هذه الوجهة، وأن تتحرر من تلك القيود التي ارتكنت إليها، وأن تزيد من مستوى وعيها علّها تصل إلى التكافؤ والتزاحم مع الآخر.

في هذا السياق، يأتي بحثنا ليؤكد على أهمية الإسهام العربي النقدي في النظرية الأدبية المعاصرة، وضرورة إبراز وتثمين تلك الجهود التي أبانت تميزاً أو تفرداً فيه. ومن هؤلاء، الناقد السعودي "صالح زياد" الذي ناقش التفكيكية في كتابه "آفاق النظرية الأدبية"؛ فقد شغل لها حيزاً كبيراً في كتابه، وقدم قراءته للمرجعيات الفكرية والفلسفية لها، ثم أوضح إطارها النظري، إضافة إلى مواجهته النقدية ومناقشته لما تدعو له. فإلى أي مدى تجاوز صالح زياد الطرح النقدي العربي التقليدي في مساءلة النظرية التفكيكية بروح حديثة معاصرة؟ وما الأطر والخلفيات التي شرحها من خلال كتابه آفاق النظرية الأدبية؟

المبحث الأول: السياق المفاهيمي للتفكيكية والناقد صالح زياد

يعالج هذا المبحث الإطار المفاهيمي للموضوع، وذلك بالتّطرق إلى تعريف الناقد نموذج الدراسة صالح زياد، ثم التعريف بالتفكيكية كنظرية أدبية معاصرة.

المطلب الأول: سيرة الناقد صالح زياد

صالح زياد الغامدي (1962-) هو أكاديمي وناقد سعودي معاصر، متخصص في النقد الأدبي الحديث كأستاذ في قسم اللغة العربية وآدابها بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة الملك سعود. وهو من الأسماء العربية المعاصرة لمعت في الساحة النقدية العربية مؤخراً، حيث نشرت عدة بحوث بجرائد ومجلات سعودية وعربية مختلفة، كعلامات، فصول، الفيصل، قوافل، الجوبة... الخ. بالإضافة إلى مجموعة من المؤلفات التي أبرزت رؤيته وصنعت شهرته، وأهمها: الأنواع الأدبية (2006)، القارئ القياسي (2008)، مجازات الحداثة (2010)، الشاعر والذات المستبعدة (2011)، الرواية العربية والتنوير (2012)، آفاق النظرية الأدبية من المحاكاة إلى التفكيك (2016)، سجون الثقافة (2019). وإنّ المطلع على كتابات صالح زياد، يشدّه إليه طرحه الهادئ،

ويجذب به نحوه عمق تحليله وسعة ثقافته وإطلاعه، كما تأسره قدرته على التفاعل المنتج والخلق مع مستجدات النقد المعاصر.

المطلب الثاني: مفهوم ومقتضى النظرية الأدبية التفكيكية

يتناول هذا المطلب مفهوم النظرية التفكيكية الأدبية عند النقاد والمنظرين بصفة عامة، ثم نتطرق إلى مفهومها عند الناقد صالح زياد.

الفرع الأول: تعريف التفكيكية في النقد الأدبي

ارتبط التفكيك بالفيلسوف الفرنسي "جاك ديريدا"، وذلك حين قاد ثورة مفاجئة ضد جميع الفلسفات الغربية التي قامت عليها النظريات السابقة من المحاكاة إلى البنيوية، ولذلك فهي تعدّ - لدى كثير النقاد - نظرية أدبية لما بعد البنيوية؛ وذلك لأنها أعقبت البنيوية مباشرة وهي في قمة ذروتها دون سابق إشعار.

تعود اللحظة التي اشتعل فيها فتيل التفكيكية إلى سنة 1966 بجامعة "جونز هوبكنز" الأمريكية، حين قدّم ديريدا في إحدى مؤتمراتها مقالته الشهيرة الموسومة "البنية والعلامة واللهو في خطاب العلوم الإنسانية"، منتقدا فيه ما أسماه بـ"مركزية المعنى"؛ أيّ افتراض مركز أو مرجع للمعنى. وقد لاقت أفكاره في تلك المقالة قبولا في كثير من الجامعات الأمريكية، خصوصا جامعة "ييل" التي عملت على نشرها والدعوة إليها، لاسيما في حقل النقد الأدبي. ثم انتقل إشعاع تلك الجماعة إلى جامعات أمريكية أخرى، ليجد بعدها الطريق ممهدا خلال فترة السبعينيات للهجرة خارج أمريكا نحو أرجاء العالم.

إذا ما بحثنا عن تحديد أو تعريف للتفكيك لدى ديريدا، فإننا لا نظفر بشيء واضح؛ ففي رسالة إلى صديقه الياباني حول مفردة ومفهوم التفكيك، يقول له ديريدا بأنّ التفكيك ليس تحليلا، وليس نقدا، كما أنه ليس منهجا، ولا يمكن تحويله إلى منهج، ولا يمكن أن يحتزل إلى أدوات منهجية أو إلى مجموعة من القواعد والإجراءات القابلة للنقل.

كما أنه أيضاً ليس حتى فعلاً أو عملية¹. وقد أردف قوله بعد شرح مستفيض بأنه حتى مفردة التفكيك لديه ليست بالجيدة أو الكافية².

سبب هذا الانغلاق اختلافاً وصعوبة لدى النقاد في تحديد التفكيك، فنجد مثلاً الناقد "ديفيد بشبندر" (DAVID BUCHBINDER) يحدده بأنه: "بالمعنى الدقيق مقارنة فلسفية للنصوص أكثر مما هي أدبية"³؛ حيث استند في ذلك على اعتراف ديريدا بفضل أعمال بعض الفلاسفة الذي سبقوه. لكن - في الحقيقة - أنّ جميع النظريات الأدبية استندت على الفلسفة وليس التفكيك فحسب. ويستدرك بعد ذلك بأنّ التفكيك: "نظرية تهدف إلى إنتاج تفسيرات لنصوص خاصة ... أقل مما تهدف إلى فحص الطريقة التي يقرأ بها القراء هذه النصوص"⁴.

يبدو أنّ أبسط تحديد للتفكيك نظفر به يعود للمنظر الأمريكي "جوناثان كالر" الذي يحدده لنا في قوله: "ببساطة أنّه نقد للشائيات الهرمية التي شكلت الفكر الغربي: الداخل/الخارج، العقل/الجسد، الحرفي/المجازي، الكلام/الكتابة، الحضور/الغياب، الطبيعة/الثقافة، الشكل/المعنى. إنّ تفكيك ثنائية ما يعني إظهار أنّها ليست طبيعية وحتمية؛ بل هي بناء ناتج عن خطابات تعتمد عليها، وإظهار أنّها بناء في عمل تفكيكي يسعى إلى تفكيكها وإعادة صياغتها - أي لا لتدميرها؛ بل منحها بنية ووظيفة مختلفتين"⁵؛ أي أنّ التفكيك ليس كشف للمعاني والدلالات العميقة والمخفية التي قصدها أم لم يقصدها النص كعادة ما اشتغلت عليه أكثر النظريات السابقة، وإنما هو سلسلة من توليد النصوص يفكك بعضها بعضاً بصفة مستمرة، ولا نهائية فيه للمعاني المؤجلة دائماً؛ حيث تغدو فيه كل حقيقة ليست بالأبدية. وقد يفسّر هذا إحجام ديريدا عن إعطاء أي تحديد للتفكيك.

الفرع الثاني: الرؤية النظرية للتفكيكية عند صالح زياد

بداية يمكن أن نتبين الأفق النقدي للناقد من خلال ما أبداه من رؤى وقناعات توجه طبيعة فعله النقدي الذي تميز به في كتابه المذكور. ويمكن أن نتبين طبيعة ذلك الفعل حين أوضح لنا حاجته لمعرفة النظرية وفهمها، بأنها حاجة عقلية وليست رهنا لذاتية أو خصوصية، وأن هاته الحاجة للنظرية لا تكتفي بما يتضمنه جوهرها من محمولات وما تنتجه من معلومات وتصورات عن موضوعها، وإنما تتعدى ذلك لما يضمن تجدد إنتاجيتها ونفي الجمود عنها، ويتم ذلك بمعاودة فعل النظر فيها والفحص الدائم لها. إن هذا الفهم للنظرية ينم عن سعة في الأفق ووعي في الفكر ويزيح عنا صورة ذلك الاستقبال الاستهلاكي السيء للنظرية، الذي لطالما اصطبغت بها الساحة النقدية العربية المعاصرة.

نلتمس طبيعة الأفق النقدي للناقد من خلال عنوان الكتاب بذكره كلمة "آفاق"؛ فهي تعبر عن قناعاته بانفتاح النظرية التفكيكية، وتمنّعها؛ حيث أوضح بأن "إضافة آفاق إلى النظرية الأدبية في عنوان الكتاب قصدا إلى الدلالة على طبيعة الكتاب، وما يترامى إليه من التأكيد على معنى التعدد المفتوح للنظرية الأدبية"⁶. وهي إشارة موحية من الناقد للقارئ العربي للتعمق أكثر في الأطروحات والمسارات المختلفة للنظرية.

لقد انعكس انفتاح الناقد على فهمه ووعيه العميق بهاته النظرية، فلقد تنبّه لما تظهره من تمتّع وتفوّت عن التّحديد، لدرجة أنّ أحدا وصفها بالمفهوم السّرمدى الذي ارتبط بجاك ديريدا⁷. لكن رغم ذلك، قدّم الناقد إطارها النظري بأنها: "المفتاح النظري المؤسس لما بعد البنيوية Poststructuralism، وأحد الاتجاهات التي تندرج في شيوخ دلالة ما بعد البنيوية على مجموع اتجاهات نظرية لقراءة النصوص وتحليل الخطابات، ولكنها نظرية بالقدر نفسه للنصوص على قاعدة التلازم التي تجعل نظرية القراءة نظرية للنص، ونظرية النص نظرية للقراءة، وهو الأمر الذي ينطبق على البنيوية من حيث هي نظرية في

القراءة، مثلما ينطبق على نظريات المحاكاة والتعبير، والانعكاس والخلق، وهي نظريات للنص⁸. إذن، فالوجهة النظرية التي تشيع لها التفكيكية، هي "ما بعد البنيوية"؛ بل هي المؤسس لها، وذلك ضمن الاتجاهات النصية (Textuality) التي تستهدف قراءة النصوص والتنظير لها، وهذا ما يوافق فيه صالح زياد النقاد.

المبحث الثاني: مناقشة وتقديم صالح زياد لأسس التفكيكية

لم يكن تعرض الناقد للمرجعيات والمقولات الفكرية والفلسفية للنظرية التفكيكية مجرد سرد تعليمي لها، أو موقف إعجاب أو إشهار ودعاية؛ وإنما كان مواجهة نقدية واعية، ومسائلة ندية متفحّصة، وحوارا فكريا هادئا، وذلك على نحو سلس ومنظم بلغة نقدية تحليلية رصينة، تداولها بين المحاوره والمحااجة والمقارنة. وقد تقيد بإطارها المكاني؛ أي ضمن بيئتها الغربية، وأنصارها وخصومها فيها، وإطارها الزماني؛ أي منذ ميلادها حال الأزمة التي لحقت بالمركزية الغربية، فأفقدتها ثقفتها في حماية الإنسان، وتمثل حريته وعدالته.

المطلب الأول: مناقشة الخلفيات والمرجعيات الفلسفية للنظرية

أكد الناقد أولا - من خلال عدّة قرائن - أنّ التفكيكية وريثة للبنيوية، لكنها قامت بتطويرها وتقومها؛ فهي انفتاح لها على آفاق أوسع وأرحب، وليس إلغاء لها. كما قد أوضح أنّها لم تقتصر على مصادر البنيوية؛ بل وسعت من مصادرها ومرجعياتها، وذلك بعد نقدها نقدا جذريا ومجاوزتها، لكن ليس بعد الانتقاء منها ما يخدم مقولاتها ويدعم أطروحاتها؛ حيث التمس الناقد فعل انتقائيتها من خلال تواسجها مع فلسفات كانط، ونيشه، وهوسرل، وهايديجر، ومدرسة فرانكفورت. بالإضافة إلى تعالقيها مع تخصّصات أخرى، كالبلابة واللسانيات والعلوم الإنسانية الأخرى.

كما أوضح الناقد أنّ التفكيكية استثمرت الكثير ممّا أهملته البنيوية في اتجاهات أخرى. لكنها كانت تقوم في كل مرة بتوجيه قراءتها لتلك المواد المرجعية الكثيرة، وتنقلب عليها، وتغيّر أحيانا من معناها، فاستثمرتها ضمن منظور جديد، وضمن تصورات مضادة

ومزعزة للمتعاليات واليقينيات الثابتة في الفكر الغربي؛ بل تلکم التصورات القديمة المؤتلفة والمختلفة التي عكف عليها التفكير الإنساني منذ افلاطون إلى البنيوية. لذلك - بحسب الناقد - أنّ "الفهم للتفكيك يقتضي التأشير إلى ما هو نقيض له مختلف عنه من التصورات النظرية، فإنه يقتضي معرفة الطروحات التي تجذرت فيها التفكيكية وترقّت إلى وعيها الخاص بتطويرها واستثمار أفكارها والبناء عليها"⁹. وقد خاض الناقد في هذا المطلب معتمداً - بشكل رئيس - على منابع النظرية في الفكر الغربي، حيث أوضح من خلال مناقشته للخلفيات الإبيستيمولوجية والفلسفية للتفكيكية، تعدد منابعها ومصادرها النظرية، واغتنائها في أطروحاتها بالفلسفات القديمة والجديدة. مما أدى إلى خروجها عن السائد والمألوف والمهيمن؛ حيث نقضت ما كان يعتقد أنّه محكم وعقلاني، وأحادي ثابت ونهائي. فهذا الأمر كما يقول الناقد: "يجعل من التفكيكية سؤالاً فلسفياً متصلاً، وفي الوقت نفسه فعلاً نقدياً جذرياً: فعلاً نقدياً يجعل من النقد للتفكيكية أهمية تتجاوز التفكيكية"¹⁰. وهو الأمر الذي حمل الناقد على تنصيب محاكمة نقدية لها تفصل القول، وتحسم الجدل حولها.

المطلب الثاني: محاكمة الناقد لمبادئ التفكيكية

لمواجهة النظرية التفكيكية ومساءلتها نقدياً، نصّب الناقد محاكمة حدّد فيها مقامين؛ مقام للاتهام وآخر للدفاع. وقد أوجد لنفسه مكاناً في كلا المقامين؛ أي كمدعي قد أحضر معه لائحة الاتهام الخاصة به، وكمدافع في نفس الوقت؛ حيث أوجد ما أمكنه من براهين ليرافع عن النظرية. وفي كلا المقامين، كان الناقد يستحضر مقالات لنقاد آخرين من الأنصار أو الخصوم، الذين سبقوه للاستدلال على أقواله وادعاءاته، وذلك لتدعيم موقفه النقدي وتقوية حجته. كما ناقش الأفكار المستعصية فيها بنديّة، وحاورها بروية، وقابل بين الآراء المختلفة ونقدها، وذلك ليتخذ لنفسه موقفاً نقدياً مثمراً، فلا يكون مجرد اجتزار لكلام من سبقوه.

الفرع الأول: مقام الاتهام

في مقام الاتهام، تحدث الناقد أولاً عن الجهات المدعية؛ أي المهاجمة التي استعدتها التفكيكية، وقد أثاره وجود منتقدين للنظرية من علماء لسانيات النص. وقد ذكر بأن أصحاب الفكر الراديكالي من ذوي الوجهة اليسارية يرون فيها انقطاعاً عن الواقع ومحافظة. وأما المحافظون واليمينيون، فيرونها مقلقة للواقع. والأمر ذاته من الوجهتين المثالية والواقعية؛ حيث يرون في تفكيكها للميتافيزيقيا عدواناً على جوهر المعاني الذي تختص به المثالية. أما في عكوفها على اللغة ونفيها وجود شيء خارج النص، فهو نفي لأسس جميع الفلسفات الواقعية. وبالنسبة للوجهات الأدبية سواء منها التقليدية أو الحديثة، فبدورهم لم يحتفوا بالتفكيكية وهاجموها.

أما بالنسبة لموقف الناقد الشخصي الأولي من النظرية في هذا المقام، فنعتها بأنها مؤدى لأقذع الصفات وأشدّها خطراً. وقد أطلق عليها في نصف صفحة نعوتاً عديدة¹¹، يشاركه فيها عديد النقاد - طبعاً - من قبيل: فوضوية، سوداوية، عدمية، عبثية، شكوكية، متناقضة، متطرفة، فكر طفولي، انتحار فكري، هروب... الخ. ثم بعد ذلك، أخذ يفصل قوله، ويشرح موقفه النقدي المهاجم لها، وهذا من خلال ستّ دلالات نلخصها كالآتي:

1- الدلالة الهدمية: فانزلاق الدال وتدرجه بين معاني لا نهائية، والاختلاف المرجئ للمعنى، والقراءات الخاطئة والسيئة والمتوالية الناتجة عن الهدم المستمر لأبنية المعنى، صنعت في التفكيكية دلالة هدمية وتدميرية من دون أن تنتج بديلاً يذكر؛ حيث يشبّها الناقد بـ "الرغبة المجردة في الدلالة على ممارسة الهدم والتفكيك"¹².

2- التناقض التفكيكي: بوصف التناقض عيباً منطقياً وقدحاً في السلامة العقلية، وأنه لا يمكن أن تقوم معه قائمة لأيّ رأي أو فكرة، فإنّ همة التناقض في التفكيكية ثبتت عليها أولاً في مهدا وفي بيئتها الغربية، ولذلك استدل الناقد بأقوال بعض النقاد الغربيين

الكبار في مراجعاتهم النقدية للتفكيكية، بإثبات هذا التناقض في مقولاتها وفي منهجها. ومن أشهرهم: جوناثان كالر، وبير ف. زيم (Pierre V. Zima)، وجيرالد جراف (Gerald Graff)؛ فكلر مثلاً أظهر التناقض من "أنّ نقد مركزية الكلمة لا يقوم إلا على تلك المركزية ذاتها التي يسعى لتحطيمها، لأنه يتضمن الحاجة والبرهان، ويلجأ إلى الأدلة أو إلى أفكار عن التجربة"¹³.

3- العقائدية: استخلص الناقد صفة العقيدة Dogma التي وسمت بها التفكيكية من خلال أحد المقالات لجيرالد جراف، وهي صفة قائمة على المفارقة بين رؤيتها لذاتها ورؤيتها لما عداها، ذلك بأنها "تشكك وتقوض ما عداها، ولكنها تقف من ذاتها موقفا قطعياً يقينياً مطمئناً"¹⁴، فالتفكيكيون —بحسب جيرالد جراف— يؤكدون دائماً في كلامهم لا يجادلونك أو يناقشون، ولذلك تكثر في كلامهم كلمات: أبداً، دائماً، مطلقاً، تماماً... الخ¹⁵.

4- العدمية: أدت سلوكيات التفكيكية من تناقض وتعارض، وتششت وإرجاء وتيه، ومدار للهدم والتقويض إلى اتهامها بالعدمية Nihilism؛ وذلك نتيجة ما أحدثته من فراغ وظلام، وغياب للروح التي يتصل بها المعنى.

5- اللاأخلاقية والملازمة للشر: تتصل هذه التهمة بالتفكيكية —بحسب خصومها— في تحاشيها الأهداف الإنسانية وخروجها عنها؛ لأنها فرّطت في الإنسان والذات البشرية، ونفت أصلية الخير فيه، واغتربت عن الواقع. كما أن القيم الخيرية والمثاليات المتعالية والمعاني الأخلاقية التي تنقدها التفكيكية وتهدمها، تعدّ مادة ثمينة ومقدسة في الحياة الإنسانية في كل زمان ومكان؛ فهي محل قناعة راسخة بوظيفتها السامية لدى عموم البشر، وهي أيضاً مدار إجماع على سلطتها المرجعية في حياة الناس.

6- المحافظة والنخبوية والطغيان البلاغي: إن الطريقة التفكيكية أثبتت أنها طريقة مثلى لتجنب مسائل السياسة وتحاشي الصراع مع أهلها. وقد وصمت في هذا المنحى من

أنصار الوجهة الماركسية والواقعية بالمحافظة والنزوع إلى إيقاف التغيير الاجتماعي. كما وصمت من قبل اليساريين بصفات أشنع، كالرجعية والتقارن مع الإمبريالية والتوحش الرأسمالي. ويدللون على ذلك باحتفاظ التفكيكيين بالمناصب والرتب وأدوار القيادة وحصولهم على الجوائز، مما يدل على لديهم على التواطؤ مع المؤسسة الفكرية الحاكمة.

أما بالنسبة للطغيان البلاغي، فيعني سيادة البلاغة على ميدان المنطق الذي أدى إلى تسوية النصوص الأدبية بالنصوص الفلسفية. أما الطعن فيها بالنخبوية؛ فهو وصف "يقصد إفراغها من القيمة وإحالتها إلى رطانة فارغة"¹⁶؛ أي إلى لغة مبهمه وغامضة قصد اكتساب وجهة، وإضفاء مظهر للتعالي، واحتماء من سهام النقد الموجهة إليها، وإضعاف ثقة المعارضين الفكريين في أنفسهم.

الفرع الثاني: مقام الدفاع

كان لردة الفعل العنيفة الناجمة عن الخضة المزلزلة التي أحدثتها النظرية التفكيكية في انقلابها الفكري على المفاهيم الأدبية والفلسفية والإنسانية الحديثة والضاربة في القدم، مبررا يستوجب التفهم للموقف النقدي الرافض لها والحاتق عليها، الذي وصمها بأشنع الصفات. لكن ذلك، لم يمنع الناقد، وقد أوجد نفسه بنفسه في هذا المقام الدفاعي، أن يفتش لها مبررات في مقابل الانتقاد الذي أحيط بها، والسود الحالك الذي أوقعت نفسها فيه، ولذلك قدم دفعات نقدية، رآها منصفة في حق النظرية، وذلك في مواضع تقتضي الإنصاف، وتقتضي الموضوعية النقدية.

قبل أن نستعرض تلك الدفعات ونشرح حيثياتها، ننوه بما بذله الناقد من جهد في صياغتها، وقد شكلت موقفه النقدي الدفاعي على التفكيكية؛ حيث استعان فيه ببعض الآراء المتأنية والمواقف المتوازنة لنقاد آخرين، يبدو أنهم أرادوا أن يكونوا منصفين أيضا مع النظرية ما أمكنهم ذلك، وفي منأى عن الانفعالية التي كانت لدى غيرهم. وقد اختزل الناقد موقفه النقدي هذا في أمرين اثنين، هما:

1- موقفها التحرري:

من الواضح أنّ التفكيكية تحتزن طاقة تحررية مذهلة، ويتجلى ذلك في رفضها للتمركز تحت أيّ معنى من المعاني. كما أن الموقف النقدي النقضي —بحسب الناقد— يراه موقفا تحرّريا نتج عنه إثراء للقراءة وتنوّعها، وذلك بعد اعتناقها من أسر الوجود والتطابق، وقيود التقليد والتمركز على المؤلف ومقصديته، مما سمح بإعادة الفهم للنفس والتاريخ والثقافة، كما سمح أيضا بتحرير القارئ من وجوده السلبي، واستنهاض فاعليته بعد فتح حدود الفكر الموهومة أمامه.

كما يتجلى البعد التحرري في التفكيكية أيضا من خلال مناهضتها للسياسات السلطوية والأيديولوجيات القمعية؛ حيث يؤكد بأن النقد التفكيكي للتسلط الإيديولوجي والسياسة القمعية هو "مؤدى تلقائي للوجهة كلها نحو تفكيك أوهام الوحدة والتطابق والتمركز المنطقي، وأسبقية المعنى، والدور الثانوي للغة"¹⁷، الأمر الذي ينتج عنه مفاهيم غير مستقرة، ومعاني متعددة ومختلفة، مما يحدث تضاربا في تلك الأيديولوجيات والسياسات والهويات، وينجرّ عنه ضبابية في ثباتها، وتزعزعا وتفتتا في تمركزاتها.

وسع الناقد قراءة الوجه التحرري للتفكيكية من زاوية التفاتها للعلاقات بين النصوص، فبوصف التفكيكية "تعتمد إلى إقامة علاقات بين النصوص، لتكشف من خلال ذلك على قدرة الكاتب على مواجهة الموروث"¹⁸، فقد استعان الناقد في شرح تلك العلاقات بالمنظور النقدي الموسوم بـ "قلق التأثير نظرية في الشعر" للناقد الأمريكي هارولد بلوم (Harold Bloom) (1930-2019) في توصيفه لمسألة التأثير الشعري أو العلاقات الشعريّة المتداخلة بين الشعراء في نصوصهم، الذي رأى فيه بعدم نقاوة النصوص الأدبية، وأنها في حالة توالد مستمرة من نصوص أخرى قديمة، ولذلك فصاحب النص الجديد، يعيش قلقا وصراعا نتيجة تأثره بالنص القديم الذي يريد أن يتميز عنه، ويخطف السبق منه¹⁹، الأمر الذي يدعوه إلى منافسته، ثمّ التحرر منه لتكوين أصالة،

والظهور بواقع جديد ومعان جديدة له إلى الوجود. فالتفكيكية من خلال مبدأ الاختلاف — التحرري بحسب نعت الناقد له-، وأيضا من خلال صفة الكتابة للنص، تسمح لذلك النص الموروث بالاستمرار النسبي في الزمن، والقابلية للتكرار، واستحاليته إلى مادة للتفسير وإعادة التفسير، واستخلاص رؤية جديدة.

2- أخلاقية التفكيكية:

إذا كان المعارضون للتفكيكية يصفونها بالأخلاقية وفق ما ذكرنا في لائحة الاتهام السابقة، فإن الناقد يرى أن في التفكيكية ما يمكن اعتباره استدلالا أمام الخصوم على الصفة الأخلاقية، إلا أنها ترفض المطابقة أو التوافق بينها وبين الأخلاقية (Morality) بشكل قاطع.

يرى الناقد أنّ التفكيكية نفذت إلى المعنى الأخلاقي من خلال الإقبال على التعدد والإعراض عن الفردية، وتفضيل الاختلاف ونبد الوحدة، وتأكيد النقد وإلغاء التسليم، والتحيز للكتابة وتحييد الكلام؛ حيث سحبت من الخصوم مفهوم الأخلاق واستعادته، وأعادت صياغته بما يقصي مفهومها التقليدي الذي ألفتة الإنسانية، وأصبح حجة ضد أولئك المعارضين لها.

لكن هذه الصياغة الجديدة للأخلاق -في الحقيقة- لم تصغها التفكيكية، وإنما صاغها نقاد مناصرون اجتهدوا في أن تكون وفق رؤية تفكيكية، ودون انحراف أو زيغ عن منظورها، وذلك في ردهم على المعارضين. لكن ذلك لم يجد نفعاً مع التفكيكية؛ فقد ردّ مؤسس التفكيكية الأول (ديريدا) معترضا ورافضا إثباتات أولئك المناصرين والمدافعين في صياغاتهم. وهذا فضلا عن اعتمادهم على مصادر الإثبات التقليدية كجدلية هيغل، وظواهرية هوسرل، وتفكير هايدجير التي هي محل نقد ونقض في التفكيكية. ويمكن أن نوضح تلك المنافذ والتخريجات للمغزى الأخلاقي التفكيكي، كما أورده مناصروها، وكما أقرها وحصرها الناقد في مؤلفه ضمن الآتي:

2-1- احترام الآخر:

يكتسي الآخر في التفكيكية مكانة مرموقة وأهمية كبيرة، وذلك في مواجهة الذات المتوهمة والمستبدّة، وهذا ما جعل من التفكيكية -شأّت أم أبت- تنطوي على موقف أخلاقي لا ينكر. وقد استدل الناقد بموقف الفيلسوف ليفيناس من الآخريّة باتخاذ موضوعاً ثرياً للأخلاق يتشارك فيه مع التفكيكية في دعم الموقف من الآخر.

كما استدعى الناقد مشاركة الناقد الأمريكي جوزيف هيليس ميلر (J. Hillis Miller) في ذات الموقف، وذلك من خلال كتابه "أخلاقيات القراءة" (The Ethics of Reading) (1928-2021)؛ حيث رأى، وهو يربّث أخلاقية التفكيكية عدم اختزال النص في الظروف السياسية والاجتماعية والتاريخية والدينية والنفسية؛ بل اقتصارها بشكل مستقل على فعل القراءة في مواجهة النص من قبل الآخر؛ أي القارئ، ولذلك فهي تتطلب من هذا القارئ استجابة ومسؤولية. "كما تتضح ضرورة هذه الأخلاقية التفكيكية في ضديتها للنرجسية في الحوار مع النص وآخرته التي تُعطى وزنها المستحق؛ فالقراءة المتمركزة منطقياً - بعكس القراءة التفكيكية - غير أخلاقية؛ لأنها تتملك الآخر وتنسى آخريته"²⁰.

2-2- احترام التعددية:

إنّ التعدد مظهر من مظاهر الاختلاف الذي يعدّ المقولة المركزية التي يقوم عليها المنظور التفكيكي، وهو - بحسب الناقد - المجال الذي ارتفعت فيه أصوات الشعوب المستعمرة، والأقليات الاجتماعية والثقافية المهمشة ضدّ العنصرية والإقصاء والتهميش. ولذلك فإنّ تلك الشعوب والأقليات تدين للتفكيكية في الاستقواء على التسلط والتملك بتقويض التمرکز خارج النص، ويستدل الناقد في ذلك بانتقاد التفكيكية وتصحيحها للدعوى البنيوية التي تنطوي على تمرکز عرقي وتمييز ضدّ الشعوب البدائية، وذلك حين قالت بنى العقل الإنساني الواحدة والمتماثلة لاغية الاختلاف، وماحية التّنوع بين

الشعوب والحضارات. كما يستدل في ذات السياق بالمواقف العلنية لديريدا في تحيزه للقضايا العادلة في العالم، كمناصرته لنيلسون مانديلا، وموقف انخيازه للحق الفلسطيني. كما يعزى تطور الحركة النسوية إلى تأثيرها بالتفكيكية؛ حيث اكتسبت آخرية المرأة موقعا جديدا من خلال نقض التمرکز حول الذكر.

2-3- التأكيد على حياة الإنسان لا على موته:

يتساءل الناقد عن جدوى الأخلاقية التي أثبتتها النقاد في التفكيكية في ظل موت الإنسان (المؤلف)، والعدمية، واللامعنى. والإجابة على هذا التساؤل يتلقفها صاحب الكتاب من التفكيكية نفسها في ردها على الخصوم المركزين على المؤلف والغافلين عن القارئ، وذلك كعادتها ترد بطريقة قلب التراتب في ثنائية مؤلف / قارئ، وهذا بالتركيز على القارئ الذي كان ميتا بسبب تفرد المؤلف بالمعنى والوجود. فإذا كان المؤلف يدل على الاكتمال والنهائية والماضي، فإن القارئ في التفكيكية يدل على المستقبل، وعلى التعدد واللا نهائية، وعدم اكتمال المعنى أو واحدته.

أما بالنسبة لتهمة الانحصار في النص في حق التفكيكية، فهي لا تنفصل عن تهمة قتلها للإنسان. لكن دحض هذه التهمة أيسر للتفكيكية من دحضها للتهمة الأولى؛ لأن التركيز على اللغة — بحسبها — التي تفتقر دوما إلى الشفافية واليقين، ووجود فجوة واختلاف دائم بينها، وبين الحقيقة وعالم الأشياء. كل هذا يضاعف من أهمية المدلول لا أن تتناقض أهميته.

وفي نهاية المرافعة، يلفت الناقد انتباهنا إلى ملاحظة فارقة، تتجلى بين تفكيكية رائدها الأول ديريدا التي لا تتكرر، وبين غيره الذين كانوا أقل تفكيكية منه؛ حيث اهتم بعضهم بنفسية الشاعر أو بالأبعاد السيرية للأدب. وفي الآن نفسه، إفادة آخرين من خارج التفكيكية في مشاريع نقدية مختلفة، كالنسوية أو الماركسية أو التاريخانية الجديدة أو النقد الثقافي... الخ، وهذا يدلنا على أهمية ما أضفته التفكيكية من أطروحات في الساحة

الفكرية عموماً، ويدلنا - في المقابل - على صعوبة أن تخضع جميع المعاني والثوابت للنقض. أما الجانب المضىء في التفكيكية تجاه النظرية الأدبية، فيظهر في وظيفة جديدة على غرار الوظائف السابقة في الأدب، أطلق عليها الناقد "الوظيفة التفكيكية للأدب"؛ حيث تُمكن الأدب من تحرير الإنسان فكراً، وشعوراً ووجوداً.

خاتمة:

نخلص في خاتمة هذا البحث أنّ مجال النظرية الأدبية واسع ومفتوح لكل ناقد حصيف له القدرة على الإسهام فيها وإثرائها ونقدها، ولما لا إعادة الإنتاج لها. وقد تجلت قدرة وكفاءة الناقد "صالح زياد" على اقتحام هذا المجال، مما التمسناه فيه من خلال مواجهته النقدية للنظرية التفكيكية التي أظهر فيها يلي:

- وعيه النقدي العميق، واستيعابه الواسع والدقيق للأطروحات النظرية المختلفة، ودرايته الشاملة بالخلفيات والمرجعيات الفكرية والثقافية لها.
- انفتاحه العقلاني، وتحرّره الفكري مع تحفظه عن التبني التام لما عند الآخر.
- تفاعله الإيجابي مع الآخر بالمساءلة والمحاورة والمحاجة.
- تقيّده بالسياق المعرفي النظري، ولجمه للنزعات والتمركزات الخصوصية.
- قدرته على استخلاص الاستفادة القصوى والمثلى مما عند الآخر.

الهوامش:

- ¹ - ينظر: جاك ديريديا، الكتابة والاختلاف، تر: كاظم جهاد، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 2000، ط2، ص ص60-61.
- ² - المرجع نفسه، 63.
- ³ - ديفيد بشبندر، نظرية الأدب المعاصر، وقراءة الشعر، تر: عبد المقصود عبد الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 2005، دط، ص 75.
- ⁴ - المرجع نفسه، ص 76.

⁵ - Jonathan Culler: Literary Theory: A Very Short Introduction, Oxford, University Press, UK, 1997, P, p126

- ⁶ - صالح زياد، آفاق النظرية الأدبية (من المحاكاة إلى التفكيكية)، دار التنوير للطباعة والنشر، تونس، لبنان، مصر، 2016، ط1، ص10.
- ⁷ - David Carter: Literary Theory, Pocket Essentials, Harpenden, UK, 2006, n/ed, p109.
- ⁸ - صالح زياد، مرجع سابق، ص157.
- ⁹ - المرجع نفسه، ص157.
- ¹⁰ - المرجع نفسه، ص212.
- ¹¹ - ينظر: المرجع نفسه، ص259.
- ¹² - المرجع نفسه، ص260.
- ¹³ - جون ستروك، البنيوية وما بعدها من ليفي شتراوس إلى دريدا، تر: جابر عصفور، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1996، ص198.
- ¹⁴ - صالح زياد، مرجع سابق، ص262.
- ¹⁵ - Gerald Graff, Deconstruction as Dogma, The Georgia Review, University of Georgia, Vol.34, No.2 (Summer 1980) pp.415-416. (نقلا عن: صالح زياد، مرجع سابق، ص262).
- ¹⁶ - صالح زياد، مرجع سابق، ص213.
- ¹⁷ - المرجع نفسه، ص272.
- ¹⁸ - ينظر: هارولد بلوم، قلق التأثير نظرية في الشعر، تر: عابد إسماعيل، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، سوريا، 2019، دط، ص17-28.
- ¹⁹ - عبد الله الغدامي، الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشرّحية، نظرية وتطبيق، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، 2006، ط6، ص54.
- ²⁰ - Simon Critchley, The Ethics of Deconstruction: Derrida and Levinas, 2ed, Edinburgh, University press, 1999, pp44-46. (نقلا عن: - صالح زياد، مرجع سابق، ص277).

قائمة المراجع:

- الكتب:

- جاك ديريدا، الكتابة والاختلاف، تر: كاظم جهاد، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 2000، ط2.
- جون ستروك، البنيوية وما بعدها من ليفي شتراوس إلى دريدا، تر: جابر عصفور، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1996.
- ديفيد بشبندر، نظرية الأدب المعاصر، وقراءة الشعر، تر: عبد المقصود عبد الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 2005، دط.

- صالح زياد، آفاق النظرية الأدبية (من المحاكاة إلى التفكيكية)، دار التنوير للطباعة والنشر، تونس، لبنان، مصر، 2016، ط1.

- عبد الله الغدامي، الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشرحية، نظرية وتطبيق، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، 2006.

- هارولد بلوم، قلق التأثير نظرية في الشعر، تر: عابد إسماعيل، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، سوريا، 2019، دط.

- Simon Critchley, The Ethics of Deconstruction: Derrida and Levinas, 2ed, Edinburgh, University press, 1999.

- Jonathan Culler: Literary Theory: A Very Short Introduction, Oxford, University Press, UK, 1997.

- David Carter: Literary Theory, Pocket Essentials, Harpenden, UK, 2006, n/ed.

- المقالات:

- Gerald Graff, Deconstruction as Dogma, The Georgia Review, University of Georgia, Vol.34, No.2 (Summer 1980).